رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقري إذا نظرنا إلى أعماله ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذي جعله مستعدًّا لتلك الأعمال مضطلعا بتلك القدرة وإن لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذي تستطيعه. لما يتفق أحيانًا من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل.

إلا أنَّ عمر كان رجلًا ممتازًا بعملهِ، ممتازًا بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرُّد في عرف الأقدمين والمتحدِّثين، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين.

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيمون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده.

وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيمون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز، أو رجل موهوب.

كانت نظرة إليه- قبل السماع بعمل من أعماله- توقع في الروع أنه من معدن في الرجال غير معدن السَّواد[1]، وأنه جدير بالهيبة والإعظام، خليق أن يحسب له كلَّ حساب.

كان مهيبًا رائع المحضر حتى في حضرة النبي التي تتطامَن عنده الجباه، وأولها جبهة عمر. .

---

(١) العامة.

أذن النبيُّ يومًا الجارية سوداء أن تفي بنذرها (لتضربن بدمها فرحًا إن ردَّه الله سالمًا) فأذن لها علية السلام أن تضرب بالدفِّ بين يديه.

ودخل أبو بكر وهى تضرب، ثمَّ دخل عليٌّ وهي تضرب، ثمَّ دخل عثمان وهي تضرب، والصحابة مجتمعون.

فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وأسرعت إلى دفِّها تخفيه، والنبي علية السلام يقول: (إن الشيطان ليخاف منك يا عمر!).

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها إنها طبخت له عليه السلام حريرةً ودعت سودة أن تأكل منها فأبت. . فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها. فلم تأكل، فوضعت يدها في الحريرة ولطَّختها بها. وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها: لطخي أنت وجهَها ففعلت.

ومرَّ عمر فناداه النبي: يا عبدالله!. . وقد ظنَّ أنه سيدخل، فقال لهما: قوما فاغسلا وجهيكما.

قالت السيدة عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إيَّاه.

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضي الله عنها تتحفَّظ في زيارة قبره بعد موته، وحكت ذلك فقالت: (ما زلت أضع خماري وأتفضل في ثيابي وأقول: إنَّما زوجي وأبى حتَّى دفن عمر بن الخطاب، فلم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بيني وبين القبور جدارًا فتفضَّلت بعد).

obeikandl.com

وإن من أدب الرسول علية السلام، أنه كان يرعى تلك الهيبة يرضي عنها واغتباطًا بأثرها في نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخبر والصدق وإخافة أهل البغي والبهتان.

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذين يجهلونه. . وتلك علامة على أن هيبته كان قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار. . فربَّما اجترأ عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء وقلَّة اكتراثه للمظهر والثياب. أمَّا الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم[١] على المفاجأة روعة لا تذهبها الألفة وطول المعاشرة، ومن ذاك أنه كان يمشى ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت، فلم يبق منهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط.

وتنحنح عمر والحجَّام[٢] يقص له شعره، فذُهل الحجَّام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه فأمر له بأربعين درهمًا.

فهي هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوةِ الجسد. إلا أنها مع هذا كان في منظر الجسد رائعًا يهول من يراه، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه.

كان طويلا بائنَ الطول يرى ماشيًا كأنه راكب، جسيمًا صلبًا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب، ويتكلَّم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذِ قول وفصل خطاب.

---

(١) يخيفهم.

(٢) الحلاق.

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة، أو معدن العبقرية والامتياز بين بني الإنسان، وللمتحدِّثين علامات في العبقرية تتَّصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتّصل بمدلول الأخلاق والأعمال.

فالعالم الإيطالي "لامبروزو" ومدرسته التي تأتمُّ برأيه، يقررون بعد تكرار الترجمة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور في أحدٍ من أهلها. . وهي علامات تتفق وتتناقص ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامَّة بين أصحاب التشابه والمساواة.

فيكون العبقري طويلًا بائن الطول، أو قصيرًا بَيِّن القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس. ويكثر بين العبقريين من كلِّ طراز جَيَشَان الشعور وفرط الحسِّ وغرابة الاستجابة للطوارئ، فيكون فيهم من تفرط سورته[1] كما يكون فيهم من يفرط هدوؤه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وبخفايا الأسرار على نحو بلحظ تارة في الزكانة والفراسة، وتارة في النظر على البعد، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع لله.

ومهما يكن من الشك في استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهي بلا ريب صادقة في حالات، مقاربة في حالات، غير أهل في كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام، ولاسيّما

(١) حدته.

عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقي فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور. .

وفي عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير.

كان كما تقدَّم طويلًا يمشي كأنه راكب، وكان أعسرًا يسرًا بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال: وكيف تجدون عمر؟. . فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم.

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله، وأثر البكاء في صفحتي وجهه كان يشاهد فيما خطَّان أسودان.

ومن فرط حسِّه، وتوفُّز شعوره، أنَّه كان يميز به بعض المذوقات والمشمومات التي لا يسهل التمييز بينها. سقاه غلامه ذات يوم لبنًا فأنكره. فسأله: ويحك !. . من أين هذا اللبن؟. . قال الغلام: إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقةً من مال الله.

وقد عرفنا أهل البادية. وعرفنا أنهم جميعًا أصحاب إبل وألبان، ولكننا لم نجد منهم إلا قليلًا يدَّعون أنهم يفرقون بين لبن ناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة، ولاسيّما في المناخ الواحد والمرعي المتقارب.

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن (من لم ينفعه ظنُّه لم تنفعه عينه). . وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرَّب المبالغة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبؤنا بحقيقة لا شكَّ فيها، وهي أنه اشتهرَ بالفراسة وحبِّ التفرُّس

والاستنباط بالنظرة العارضة، فمن ذلك أنه كان جالسًا فمرَّ به رجل جميل فقال ما معناه: أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية. فكان كذلك.

وأنه أبصر أعرابيًّا نازلًا من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده قد نظم فيه شعرًا لو شاء لأسمعكم. ثم سأل الأعرابي: من أين أقبلت؟. . فقال: من أعلى الجبل. . فسأله: وما صنعت فيه؟. . فقال: أودعته وديعةً لي. . قال: وما وديعتك؟. قال: بنيَّ لي هلك فدفنته. . قال: فأسمعنا مرثيتك فيه. . فقال: وما يدريك يا أمير المؤمنين؟. فوالله ما تفوَّهت بذلك، وإنَّما حدثت به نفسي، ثم أنشد أبياتًا ختمها بقوله:

فالحمد لله لا شريك لـــه في حكمه كان ذا وفي قدره

قدر موتا على العباد فما يقدر خلق يزيد في عمره

فبكي عمر حتى بلَّ لحيته. ثم قال: صدقت يا أعرابيُّ!.

وكان عمير بن وهب الجمحي، وصفوان بن أمية، يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان: والله ما إن في العيش بعدهم خير. فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلُّفه عن الثأر: أما والله لولا دَيْن عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشي عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمَّد حتى أقتله.

فقال صفوان يحرِّضه: عليَّ دَينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فوقع كلامه من نفس عمير، فأسرَّ إليه بعزمه على الغدر بالنبي، وشحذ سيفه وسمَّه، ثمَّ انطلق حتى قدم المدينة.

فما نظر عمر إليه متوشحًا بالسيف حتى أوجس منه فهمس لمن معه: هذا الكلب عدوُّ الله عمير بن وهب. ما جاء إلا لشرٍّ وهو الذي حرَّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر. ثمَّ دخل على النبي فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخذ بحمَّالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها. وقال لرجال الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمونٍ. ثمَّ دخل به على رسول الله فلمَّا رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر! ادنُ يا عمير.

وجعل رسول الله يسأل عمير وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسرِّه، وأعلن الإسلام والتوبة.

هذه الفراسة وشبيهاتها هي ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب. وما من عَجَب أن تكون هذه الخصلة قرينةً من قرائن العبقرية في حاشية من حواشيها؛ إذ ما هي العبقرية في لبابها كائنًا ما كان عمل العبقري المنصف بها؟ ما هي الحكمة العبقرية؟. ما هو الفنّ العبقري؟ ما هو دهاء السياسة في الدهاة العبقريين؟ من هو:

الألمعي الذي يظن بك الظنَّ كأن قد رأي وقد سمعا؟[1]

كلُّ أولئك يلتقي في هبة واحدةٍ، هي كشف الخفايا، واستيضاح البواطن واستخراج المعاني التي تدقُّ عن الألباب. . فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه، ولا انحراف به عن النحو الذي تنتحيه.

---

(١) البيت لأوس بن حجر.

والذي يعنينا بالفراسة وشبيهاتها في صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه أن نحصي الخصال الأخرى التي هي كالفراسة في هذا الاعتبار، وهي التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو (التلباثي) كما يسميه النفسانيون المعاصرون، ولكل أولئك شواهد شتَّى مما روي عن عمر في جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة.

جاء رسول من ميدان نهاوند فسأله: ما اسمك؟. . قال: قريب، وسأله مرة أخرى: ابن مَن؟. . فقال: ابن ظفر!. . فتفاءل وقال: ظفر قريب إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وروى يحيى بن سعيد أن عمر سأل رجلًا: ما اسمك؟ قال: جمرة!. . فسأله: ابنُ مَنْ؟. . قال: ابنُ شهاب. . فسأله: ممن؟. . قال: من الحرقة، وعاد يسأله: ثمَّ ممن؟. . من بني ضِرام، وهكذا في أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه، والرجل يجيب بما فيه معني النار ومرادفاتها حتى استوفاه. فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا.

وقد يكون التأليف ظاهرًا في هذه القصة. ولكنها مع تأليفها لا تخلو من الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار.

أما الرؤيا فآخر ما روي عنه من أخبارها أنه رأي قبيل مقتله كأن ديكًا نقره نقرتين فقال: يسوق الله إليَّ الشهادة ويقتلني أعجميٌّ، فإن الدِّيك في الرؤيا يفسَّر برجل من العجم.

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون إنما تظهر بأجلي وأعجب من هذا كثيرًا في قصة سارية

المشهورة، وهي مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثي Telepathy أو الشعور البعيد.

كان ﷺ يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى: يا سارية! الجبل. . الجبل. . ومن استرعي الذئب ظلم.

فلم يفهم السامعون مراده، وقضي صلاته فسأله علي ﷺ: ما هذا الذي ناديت به؟. . قال: أو سمعته؟. . قال: نعم. . أنا وكل من في المسجد.

فقال: وقع خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل. . فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج مني هذا الكلام.

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول: يا سارية ابن حصن! الجبل. . الجبل. فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ولا داعي للجزم بنفي هذه القصة استنادًا إلى العقل أو إلى العلم أو إلى التجربة الشائعة. فإن العقل لا يمنعها، والعلماء النفسانيون في عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفي أمثالها. بل منهم من مارسوا (التلباثي) وسجَّلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين.

إلا أنَّ المهمَّ من نقل هذه القصة في هذا الصدد أنَّ عمر كان مشهورًا بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية إمَّا بالفراسة أو الظنِّ الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهي الهبات التي يلحقها بالعبقرية

علماء العصر الذين درسوا هذه المزيَّة الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها.

فهو رجل نادِر بما تراه منه العين، نادِر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر في مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين.

أو هو رجل ممتاز، وعبقريٌّ موهوب في جميع الآراء.

obeikandl.com